[٢]

خالد النجار ونظرية التدافع– نحو نظرية لفهم وتفسير السلوك الإنساني

أ.د. جان توما
أستاذ اللغة والأدب بالمعهد العالمي للتجديد العربي
والاستاذ بالجامعة اللبنانية

مجلة الطفولة والتربية – العدد الحادي والخمسون – الجزء الأول – السنة الرابعة عشرة – يوليو ٢٠٢٢

خالد النجار ونظرية التدافع– نحو نظرية لفهم وتفسير السلوك الإنساني

أ.د. جان توما★

الشكر أوّلا للأستاذ الدكتور خالد النجار الذي أجبرني على الإبحار بفرح في بحر هذه النظريّة وأنا الآتي من عالم الأدب واللغة، ولكنّي سررت لأنَّ أشرعة زورقي "تدافعت" لتوصلني إلى شواطىء معرفة ما زرتها وما رسوت فيها، لعلّ الشاطىء الذي أبحث عنه لن أقع على رماله فقاموس العلم (والقاموس في المعجم هو البحر) لن يكون بوصلة رسو آمن قبل أن تصير المعرفة الحقّة مرساة وطوق نجاة.

من هنا يتقن المفكّر فنّ العوم والإبحار، كما يجيد تدوير زوايا الجلمود، إذ يجمع بين سهولة ومائيّة وجريان كلماته كالبحر، وبين قوة ألفاظه وغموض بعضها، أو جديدها، كالصخر المتين.

سأنطلق من ميدان اختصاصي في اللغة والأدب إلى أن طلاب الدراسات العليا اليوم وبسبب من تعقيدات الحياة ومصاعب المجتمع وتحدّياته انحازوا في دراساتهم إلى التحليل النفسيّ في محاولة للوقوف على الصورة الشعريّة أو النثرية الفنّية المركّبة انطلاقا من الحالة النفسيّة التي كان يعيشها الشاعر أو الناثر. هذه الحالة من يستطيع أن يلتقطها يمتلك مفاتيح النص، ولعلّ من الإخلاص بمكان أن أشير لهم إلى نظريّة التدافع إذ رأيتها بعد شرح الدكتور خالد النجار تتجوّل في النصوص الشعريّة والنثريّة، وهي ستكون لاحقًا من أساسات دراسة علم شرايين النص، تشريحًا وتدخّلا ذوقيًا ونفسيًّا واجتماعياً في تحليل النص.

ما لفت انتباهي في مفاصل كتاب الدكتور النجار هذه الدقّة في المقاييس في المسافة بين المصطلح والشرح، والمفردة والبحث، كالخارج إلى البراري حيث السماء والأفق والسهول والأمداء. حيث يرتاح الكاتب عند جذع شجرة. يصالح ما مضى، فيما عيناه تواجه النسائم في هدأة الروح وسكينة العمر.

★ استاذ اللغة والأدب بالمعهد العالمي للتجديد العربي والاستاذ بالجامعة اللبنانية.

تساءلت وأنا أقرأ واتوغّل في مناحي أفكار الدكتور خالد النجار غريب كيف أنّ الباحث كلّما ظنّ أنّه اكتشف قارّات حياته، غرق في متاهات البحث عن الحقيقة. كأنّه يسافر على ظمأ فيسود السراب، فلا يقع على واحة، ولا يستطيع أن ينصب خيمة تقيه لظى شمس العبور. كأنّ فكر الدكتور النجار يشابه نظرية النحت في اللغة، فهو يمارسه كما يمارس النحت اللغوي، يؤآلف بين كلمتين ليرسم المعنى الجديد بلفظ جديد. لعلّ الباحث النجار يبحث بجدّية عن الهويّة المتجدّدة فيما دمّل حَمْلُ التراث كتفيه وهو على عتبات المعاصرة.

كلّ معاصرة لا تستقيم إن لم تأت من خاصرة التراث، ومن رحم المسالك الدينية أو العائلية المتواترة.

من هنا فإنّ الباحث كالدكتور خالد النجار كاليمام لا مستقرّ له، وكالغمام لا معبر عنده. يعرف أنّ الكون محبرته، وأنّ يراعه من تلك الشهب التي تلمع، فيطلقها حرّة على صفحة أبجديته. يقلقه دائمًا المكان والزمان. كأن الفضاء الذي يكتب فيه يقوده إلى مجرّات من دون ثقوب سوداء، فالمجهولُ في قلبه، والمتوثِّبُ في عقله، والمُنتظرُ في وريده.

وما أشار إليه الباحث الدكتور خالد أترجمه أدبيًّا بالآتي: أمّا من يأخذ الأديب إلى السماء الجديدة والأرض الجديدة، فهي " أناه" المتراكمة التي لا يراها ولا يحادثها، لكنها تحرّضه ليكتب، وتشوّش أفكاره ليستقرّ، وتقيمه في عزّ الفوضى الخلّاقة ليبدع، هل من عالم خاصّ للباحث له طقوس خاصّة مستقرّة في هذا العالم المجبول بالقلق والخوف والتوتر. كأنّ الدعوة واضحة في صياغة هذا الوجع وتنمية المسافة بين "الأنا"و"الأنا". هذه المسافة بينهما مُتعبة، وقوف على حدّ السكين، وعلى نبض التمزّق والشتات.

أعرف أمرًا واحدا أنّ الإنسان هو المدعو أوّلا إلى الأصالة والثقافة والإبداع ليكون المجتمع على مستوى طموحاته، المجتمع كبير، كما أبناؤه، واحدًا هما في فرحه ووجعه ومشاكله واضطراباته واستقراره. متى يستفيق المواطنون من هذا الاستسلام الكبير لواقع الحال؟ عسى أن نخرج من العتمة إلى النور بالتدافع الإيجابيّ المطلوب، وأن نتمكن معا، بالدفع والتكافل والتضامن، من ترميم أحلامنا لمجتمع معافى مستقرّ وآمن.

فهمت من نظرية الدكتور النجار أنّ العودة إلى الأصول هي أساس حياة الاستقرار والأمان. إنسان اليوم معجوق وضائع. مهما تعب وشقى لن يحصل على كلّ شيء.

لن أتحدث عن سقوط القيم، لأنّ القيم تبدّلت وتغيّرت. وهذا أمر طبيعيّ في عالم متحوّل بشكل يوميّ ما أتعب شباب اليوم، وأدخلهم في دوّامة لا توصلهم متاهاتها إلّا إلى الركض والتعب والسعيّ لربح العالم ولكن على حساب ماذا؟ أخشى أن نخسر في مكان ما الغنى الديني الحضاريّ الإنسانيّ الذي تضجّ فيه حضارتنا وتاريخنا الذي منه استقى الدكتور النجار نظريته.

راجعت كعامل في اللغة كلمة دَفْعُ فوجدت من أبعاده: دافع فلانا مدافعة ودفاعا زاحمه ودافعه بحقه وماطله وأحاله على آخر، وعن فلان الأذى دفعه (محيط المحيط ص٢٨٤) وما لفت انتباهي أن مفردة الدافع هي عند الأطباء دواء يدفع المادة من الباطن إلى الظاهر.

فيما ذهب لسان العرب إلى أنّ الدفع هو الإزالة بالقوة. ومما قرأته من الدكتور النجار أسجّل ما لي حول نظرية التدافع:

١- واضح أن نظريّة التدافع ذات جذور عميقة في التراث النفسيّ.

٢- نموذج التنافس بين طرفين لعمل ما.

٣- صحيح هو يرقى إلى درجة النزاع أو الصراع ولكنه لا يرقى إلى مستوى التناحر والإقصاء الكلّي للآخر.

٤- وصحيح أن ما يقود إلى المحو والإلغاء والإقصاء فهو ليس من التدافع.

٥- في التدافع يسود منطق التدافع الخيري، أو التدافع السلميّ، أو التدافع التنافسيّ.

٦- تتجلى نظرية التدافع في العلاقة الداخلية بين المرء وذاته.

٧- يعيش الإنسان في حالة تدافع مستمر.

قد يكون هناك مجموعة من الأسئلة، ولكن فرضياتها وردت في كتاب الدكتور النجار ومن خلال ما راجعته من شروحات:

١- هل هذا يعني أنّ العلم هو حتماً ذلك الفكر الإنساني المبدع؟

٢- هل نظرية التدافع تؤدي إلى معرفة الإنسان لنفسه وبنفسه؟

٣- هل من ضرورة لتنظيم طرق التعامل مع النظرية وإدارة إرهاصاتها وتداعياتها؟

٤- ما هو دور منطق العقل وتبيان الحجج في ممارسات هذه النظرية؟

٥- ما هي أهمية التدافع على المستوى الشخصيّ وعلى المستوى الجماعيّ؟

٦- كبف نرسم حدود التدافع بين المسامحة والبناء بدل التنازع والتدمير؟

٧- كيف نوطّد أساليب السلام والإيجابيّة وسط التعامل بالتدافع؟